وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

مجلة

الفلسفة

مجلة اكاديمية محكمة تصدر عن كلية الاداب في الجامعة المستنصرية

AN ACADEMIC PEER-REVIEWED JOURNAL

الترقيم الدولي ISSN:1136-1992

المعرف الدولي DOI : 10.35284

الفلسفة

12/2021

العدد 24 2021

مجلة الفلسفة

مجلة علمية محكمة نصف سنوية يصدرها قسم الفلسفة

المجلة حاصلة على المعرف الدولي Doi
تحت رقم prefix :10.35284

العدد الرابع والعشرون

كانون الاول

٢٠٢١/١٢

رئيس التحرير

ا.د. رائد جبار كاظم

الهيأة العلمية الاستشارية

1.ا.د.يمنى طريف الخولي – كلية الآداب – جامعة القاهرة- مصر.

2.ا.د. عفيف حيدر عثمان - الجامعة اللبنانية – لبنان .

3-Professor:Juan Rivera Palomino- San Marcos – Peru

4.ا.د. مصطفى النشار – كلية الآداب – جامعة القاهرة – مصر.

5.ا.د. احمد الوشاح – كليات كليرمونت – كلية بيتزر- لوس انجلس – امريكا

6.د. احسان علي شريعتي –كلية الاديان – جامعة طهران – ايران

7.ا.د. افراح لطفي عبد الله – كلية الآداب – جامعة بغداد – العراق

8.ا.د.عامر عبد زيد الوائلي – كلية الآداب – جامعة الكوفة – العراق

9.ا.م.د. محمد حسين النجم - كلية الآداب – الجامعة المستنصرية – العراق

البريد الالكتروني

art.phi_magazine@uomustansiriyah.edu.iq

مدير التحرير

أ.م.د.حيدر ناظم محمد

كلية الآداب -المستنصرية

سكرتير التحرير

م.د أسماء جعفر فرج

كلية الآداب -المستنصرية

الاشراف اللغوي

م.د.منار صاحب

كلية الآداب/المستنصرية

اخراج وتنضيد

م.م.أثير محمد مجيد

مسؤول الموقع الالكتروني

المهندسة

ريهام ماجد عبد الكريم

نصميم وطباعة
مكتب الاثير
للنشر والطباعة

الترقيم الدولي:Issn (١٩٩٢-١١٣٦)

فهرست بدار الكتب والوثائق وايداعها تحت رقم (٧٤٢)لسنة (٢٠٠٢)

الفلسفة

مجلة علمية محكمة يصدرها قسم الفلسفة

المحتويات

كلمة رئيس التحرير

مفهوم الواحد قراءة في آراء الفارابي وابن رشد	يوسف بن عدي	١-٢٢
الأساليب التنظيمية الدعوية للفكر الإسماعيلي	أ.د.نظلة أحمد نائل الجبوري صفا مصطفى مهدي	٢٣-٤٢
أنسنة الوحي قراءة نقدية في موقف الخطاب الحداثوي للنص الديني	أ.د.رحيم محمد الساعدي م.م.حيدر عبد السادة جودة	٤٣-٦٠
مفهوم العقل عند الكندي والفارابي	م.د.منى فليح حسين	٦١-٨٠
المثالية الالمانية وتأويلاتها للمسيحية	أ.م.د. باقر ابراهيم الزيدي	٨١-١٠٠
فلسفة العقل عند نيكولاس مالبرانش	أ.م.د.سالي محسن لطيف	١٠١-١٢٠
الليبرالية السياسية عند براتراند رسل	أ.م.د.حيدر ناظم محمد حوراء حميد محسن	١٢١-١٢٩
القناع-قراءة في ضوء فلسفة نيتشه	م.د.هجران عبد الإله احمد	١٣١-١٣٠
دور الابطال في بناء الدول عند هيردوت	أ.م.د.محمد حسين النجم د.سحر علاوي عزوز	١٣١-١٤٦
حرية الإرادة عند توما الأكويني وجون دنس سكوت	أ.م.د.احمد عبد خضير م.م.اسماء جعفر	١٤٧-١٦٤

العدد
الرابع والعشرون
كانون الاول
٢٠٢١/١٢

عنوان المراسلة
العراق-بغداد-الجامعة المستنصرية
كلية الاداب/قسم الفلسفة
ص.ب:١٤٠٢٢
تلفون:٤١٦٨١١٩٨
art.phi_magazine@
uomustansiriyah.edu.iq

فلسفة العقل عند نيكولاس مالبرانش

أ.م.د. سالي محسن لطيف[١]

الملخص:

يعد مالبرانش من أبرز الفلاسفة المحدثين الذين قدموا أفكار (دينية-معرفية- أخلاقية)، حيث تأثر بكل من (أوغسطين- ديكارت- سبينوزا).

وجعل فكرة (الله) الفكرة الأساسية لبناء هرمه الفلسفي، فأكد على ذلك النور المضيء في جميع المخلوقات ومنها الإنسان الذي تميز عن سائر المخلوقات بامتلاكه (العقل) فهو قادر على بناء أفكار في داخل هذه الثروة التي يمتلكها، نظرا لما يمتلك عقله من قدرات لا نهاية لها وضعها الله فيه.

ومن هنا وضع مالبرانش فلسفته العقلية في الدين والمعرفة وكذلك في الأخلاق، على أساس أن العقل يحاول دائماً الارتقاء والتطور في سلم الحياة، كما انه يمتلك من القدرات التي تؤهله لكل فعالياته العقلية لنسيج أفكار تسمو به للسفر في معراجه الروحي تجاه الله. ولبيان ذلك كله .

قسمت البحث الى خمسة محاور: **المحور الأول:** كان بعنوان (مالبرانش ومساراته الفلسفية)، تحدثت فيه عن تأثراته الفكرية في بداية مشواره الفلسفي وكيف شق طريقه.

والمحور الثاني: كان بعنوان (فلسفة العقل) حيث تناولت فيه معنى فلسفة العقل والعلاقة بين الفلسفة والعقل.

والمحور الثالث : كان بعنوان (العقل والدين) تحدثت فيه عن علاقة العقل بالدين وكيف أسس (مالبرانش) العقل على أساس الدين الذي يميز بين الحق من الباطل والخير من الشر.

المحور الرابع: كان بعنوان(العقل والمعرفة) تحدثت فيه عن العقل هو أساس المعرفة والتي من خلالها نكون الأفكار عن عالمنا الخارجي.

المحور الخامس: كان بعنوان (العقل والأخلاق) حيث تحدثت فيه كيف أن للإنسان إرادة حرة أوجدها الله فيه وهو يستطيع بهذه الإرادةأن يختار ما هو صالح له عن طريق قدراته العقلية.

ولقد توصلت في نهاية بحثي إلى أن العقل قادر على إدراك بواطن الأشياء من خلال النور الإلهي الذي يقذفه الله فيه.

وأن العقل يمتلك حرية الاختيار في تحديد مصيره وبالتالي يصل من خلال هذه الإرادة الحرة إلى السعادة. وهذه هي فلسفته العقلية التي توصل إليها.

١الجامعة المستنصرية / كلية الاداب / قسم الفلسفة

Abstract

Nicholas Malebranche›s philosophy of mindSally Mohsen Latief

Malebranche is considered one of the most prominent modern philosophers who presented ideas Creligions, epistemological moral),ashe was influenced by (Augustine- Descartes- Spinoza). He is able to build ideas within this wealth that he possesses, due to the endless abilities that Cod has placed in his mind.

From here Malebranche put your mental philosophy in religion and Knowledge as well as morals, on the basis that the mind is always trying to rise and develop in the ladder of life, and it also possesses the capabilities that qualify it for all their mental activates to weave ideas that transcend it to travel in the Spiritual a scansion towards God.

I divided there arch into five axes: The first axis was entitled (Malebranche and his philosophical Pats), in which I talked about his intellectual I influences at the beginning of his hilosophical journey and how he made his way. And the second philosophy of mind In it I talked about the meaning of philosophy of mind and the relationship between philosophy and reason

The thirdphotographer was entitled (mind and Religion) under it about therelationship of the mind with religion.

And how Malebranche established the mind on the basis of religion that distinguishes right from falsehood and good from evil. The fourth axis entitled (reason and Knowledge), work is the basis of knowledge and through which we form ideas about our world, external , and the fiveth photographer was entitled (the mind and Ethics), in which I talked about how a person has free will that God inflicted in him, and through it he can choose what is good for him through his mental abilities.

At the end of my research, I concluded that the mind is able to comprehend things through the divine light that God removes in me, and the mind also has the freedom of in me, and the mind also has the freedom of choice in determining its destiny and thus reaches through this free will to happiness. And this mental philosophy that come up with.

المقدمة

يعد مالبرانش من أبرز الفلاسفة المحدثين الذين قدموا أفكار (دينية – معرفية –أخلاقية)، فقد تأثر(مالبرانش) بكل من (أوغسطين – ديكارت – سبينوزا).

إذ انه جعل فكرة (الله) الفكرة الأساسية لبناء هرمه الفلسفي،فأصر على وجود ذلك النور المضيء في جميع المخلوقات ومنها الإنسان، وتميز عن سائر المخلوقات بامتلاكه (العقل) فهو قادر على بناء أفكار في داخل هذه الثروة التي يمتلكها نظراً لما يمتلكه من قدرات لانهاية لها وضعها الله فيه.

كما أن الله قد أنار لتلك الروح التي يمتلكها الجسد الإنساني التيشملت كل أرجاء الكون.

من هنا وضع (مالبرانش) فلسفته العقلية في الدين والمعرفة وكذلك في الأخلاق على أساس أن العقل يحاول دائماً الارتقاء والتطور في سلم الحياة، كما أنه يمتلك من القدرات التي تؤهله لكل فعالياته العقلية لنسج أفكار تسمو به للسفر في معراجه الروحي تجاه الله، فما هي الطرق التي أقتفاها العقل للوصول الى هذه المكانة من الناحية الدينية والمعرفية والأخلاقية؟ وهل الإنسان يمتلك حرية الاختيار في تحقيق ما يريد؟ وما كان هدف (مالبرانش) من هذه الفلسفة العقلية؟

من هنا نشأت رغبتي في البحث في هذا الموضوع نظراً لأن (مالبرانش) أهتم بالعقل وكيف يمكن استخدام قدراته أو برمجته على الرغم من الصعوبة التي واجهتها في قلة المصادر التي كتبت عن هذا الفيلسوف، لكني اعتمدت بشكل أساسيعلى كتابه (البحث عن الحقيقة) المترجم الى اللغة الإنكليزيةوكتاب (مالبرانش والفلسفة الإلهية) ل رواية عبد المنعم.

لقد قسمت البحث الى خمسة محاور، (المحور الأول): كان بعنوان (مالبرانش ومساراته الفلسفية)، حيث تحدثتُ فيه عن تأثراته الفكرية في بداية مشواره الفلسفي وكيف شق طريقه. (المحور الثاني): تحدثت فيه عن معنى فلسفة العقل والعلاقة بين الفلسفة والعقل . أما (المحور الثالث) حيث كان عنوانه (العقل والدين)، تحدثت فيه عن علاقة العقل بالدين وكيف أسس(مالبرانش)العقل علىأساس الدين الذي يميز الحق من الباطل والخير من الشر.(المحور الرابع): كان بعنوان (العقل والمعرفة)، فالعقل هو أساس المعرفة والتي من خلالها نكون الأفكار عن عالمنا الخارجي.(المحور الخامس): كان بعنوان(العقل والأخلاق) حيث تحدثت فيه كيف أن للإنسانإرادة حرة أوجدها الله فيه وهو يستطيع بهذه الإرادةأن يختار ما هو صالح له عن طريق قدراته العقلية.

ولابد لي من الاشارة الى ان فكر مالبرانش توجه بالدين، فكان همه الوحيد بيان أن العقل الانساني وكل ما يتولد فيه من أفكار منبثقة من الله وقدرته اللانهائية.

المحور الأول: مالبرانش[٢]*ومساراته الفلسفية:

كانت مسارات (مالبرانش)الفلسفية تتوج بالدين من خلال مؤثراته التي تأثر بها في صغره وكذلك من خلال تأثره بالمسيحية وبالقديس (أوغسطين) وما طرحه (ديكارت) من أفكار عقلية تهدف للوصل الى اليقين.

فالفلسفة مع (مالبرانش) هي فلسفة فكرأكثر من كونها فلسفة مفكر، فهو مسلم بالكوجيتو[٣]** فهو يقول: « اذ لم تكن الدائرة التي تشاهدها شيئاً عندما أفكر فيها لما فكرت في شيء»، فجسدنا يتحول في عالم جثماني وكذلك تنتقل روحنا من دون انقطاع في عالم معقول.(جان فال، ١٩٦٨، صفحة ٣٥).

لهذا نجد ان حياته العقلية أزدهرت بعد أن درس فلسفة (ديكارت)، أذ انه قرأ كتابه (الإنسان) لديكارت، وأيقن أن رسالته الحقيقية في الحياة هي (الفلسفة) ودراسة العلوم الفيزيائية والرياضية والميكانيكية، فدرس الرياضيات الميكانيكا والفيزياء والفسيولوجيا أضافة الى دراسته للميتافيزيقا والأخلاق(بدوي، صفحة ٤٢٩).فكانت الفكرة عند مالبرانش كما هي عند ديكارت واقعة روحية مستقلة عنها لكنها حاضرة دائماً في (عقولنا) والأفكار هي التي تمكننا من امتثال الموضوعات (بدوي، موسوعة الفلسفة، صفحة ٤٣١).

---

٢ *نيكولاس مالبرانش (Niicolas Malebranch) : هو فيلسوف فرنسي ولد في باريس سنة (١٦٣٨) أنحدر من أسرة عريقة اجتمعت فيها نبالة العدالة مع البرجوازية الكاثوليكية تنتمي والدته الى أسرة تغلب عليها النزعة الدينية الصوفية ،ووالده كان أمين صندوق لمزارع كبيرة . توفي وهو سكرتير لـ (لويس الرابع عشر) . كان مالبرانش مريض ومعتل صحياً أدى به الى الانطواء النفسي وهذا ما جعله يمكث في منزله مع أسرته فكان قريباً من الكنيسة في باريس فتعلم في بيته وتحت أشراف والدته، وهذا التوجه الديني أنعكس فيما بعد على أفكاره . وبمرور الوقت تحسنت صحته والتحق بالمدرسة الثانوية . ودرس الفلسفة ومن ثم دخل كلية اللاهوت في جامعة السوربون . كان مالبرانش يعيش حياة بسيطة تنقل في عدة دول والتقى بكبار شخصيات عصره من العلماء والفلاسفة المشهورين الذي أعجبوا بشخصيته وسمو أخلاقه فكانت له شخصية جذابة مؤثرة. توفي مالبرانش سنة (١٧١٥) وهو في عمر السابعة والسبعون. أنظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، ج٢، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، (د.ت)، ص٤٢٩ وأيضا رواية عبد المنعم عباس، مالبرانش والفلسفة الإلهية، تقديم: محمد علي أبو ريان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٦، ص٣٨. أما عن إنجازاته الفلسفية فكانت أهمها (١) في البحث عن الحقيقة عام (١٦٧٥) . (٢) البحث عن الحقيقة والنعمة عام (١٦٨٠) . (٣) تأملات مسيحية عام (١٦٨٧). (٤) بحث في علم الأخلاق عام (١٦٨٨) . (٥) محاورات بين فيلسوف مسيحي وفيلسوف صبي عام (١٧٠٨)، وكان كتابه (البحث عن الحقيقة) من أهم وأجمل الكتب التي طرحها فهو يتحدث فيه عن طبيعة العقل الإنساني. فرانسو أديدال : معجمالفلسفة الميسر ، ت: جورج سعيد ، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١، ١٩٩٢،ص١٠٧.

٣ ** الكوجيتو الديكارتي ما هو إلا محاولة تتمثل في إقامة تقابل بين الذات المفكرة من جهة والعالم بأسره من جهة أخرى. رنيه ديكارت: قواعد لتوجيه الفكر، ترجمة: سفيان سعد الله ، سراس للنشر، تونس، ٢٠٠١،ص٢٨.

وسار (مالبرانش)ايضاً مسار (أوغسطين)[٤]*حيث اعتقد أنه لا سبيل الى الفهم بغير الإيمان وبهذا أقتفى طريقه فرأى أن الإيمان هو طريق العقل والفهم،وأن الدين هو منبع الحقيقة التي يستحيل بلوغها بدون الإيمان (رواية عبدالمنعم عباس ، صفحة ١٥٣).ووصل الى إدراك هذه الحقيقة من خلال تصريحه بأن الأشياء المتناهية لا قدرة لها على الفعل سواء أكانت عقولاً أو أجساماً، وهذه النظرة تدل على تأثرهبالفلسفة المسيحية (فؤاد كامل وآخرون، ١٩٨٣، صفحة ٤٥٠).

ولهذا أعتقدأنه لا حاجة الى ضمان صدق الأفكار الجلية من حيث إننا نراها في الله ذاته، فمبدأ اليقين يكون من خلال (اتحاد العقل بالله) (The Union of the With God) (كرم، صفحة ١٠٠).

فكانت فلسفته تتلخص في: « ما من شيء إذ تأملناه كما ينبغي إلا دنا الى الله « (كرم، ١٩٧٧، صفحة ٩٨).

جاءت هذه الصياغة وفقاً لنظرة عقلية عميقة، فالعقل الذي نلجأ إليه -بحسب اعتقاد مالبرانش- والذي نحتكم إليه عندما نخوض في باطن أنفسنا هو (عقل كلي) (The Whole mind) (بدوي، صفحة ٤٣١). فالعقل عنده « لا يفهم شيئاً إلا برؤية في فكر اللانهائي التي لديه، وانه لخطأ أن نظن ما ذهب إليه فلاسفة كثيرون من أن فكرة اللانهائي قد تكونت من مجموعة الأفكار التي تكونها الأشياء الجزئية، بل العكس هو الصحيح، فالأفكار الجزئية تكتسب وجودها من فكرة اللانهائي كما أن المخلوقات فيها اكتسبت وجودها من الكائن الإلهي الذي لا يمكن أن يتفرع عن وجودها. يستحيل أن يفهم العالم بذاته، ولا يمكن فهمه إلا بإدراكنا إياه في الكائن الذي يحتويه، فإن لم نرّ الله فإننا لن نرى شيئاً آخر» (زكي نجيب وآحمد أمين، ٢٠١٩، صفحة ٦٩).

ومن خلال كل ما ذكرناه نرى ظهور ثلاثة اتجاهات هامة في عصر النهضة، والتي أثرت بشكل كبير على فكر (مالبرانش)وهي:(١) نزعة الشك الفلسفية. (٢) نزعة الإيمان. (٣) النزعة العقلانية، والتي حاولت ان تتوسط مذهبي الشك والإيمان وهي التي سادت في القرن السابع عشر، وهذا ما أثر بشكل كبير على مسار (مالبرانش)الفكري في ظل هذه النزعات ومن ثم أنطلق الى صياغة فلسفته (عبدالمنعم، صفحة ٨٢).

اذن هو تأثر بديكارت من الناحية المعرفية وتأثر بأوغسطين من الناحية الدينية لكنه

---

٤ * كانت مهمة الفكر في العصر الوسيط الذي انبثق منه (القديس أوغسطين) هو التوفيق أكثر من اهتمامه بالخلق والإبداع، ومن هنا انحصر الفكر في دائرة اللاهوت وأرجع كل شيء الى الله، وهذا الطابع اللاهوتي حازم من قبل الكنيسية، وهنا وجدنا أوغسطين قد دعا الى الإيمان في سبيل الفهم، وهنا تلاشت دائرة العقل في دائرة اللاهوت وأصبح كل تفكير فلسفي وكل فهم عقلي هو تفكير ديني لمعاني. وراية عبد المنعم: مالبرانش والفلسفة الإلهية، ص٦٧.

توصل بعد ذلك الى أن الله هو الذي أوجد في عقولنا كل القدرات التي نصل من خلالها لإدراك الحقائق.

فالعقل الذي أراده (مالبرانش) أن يكون حر يتضمن معان أو نماذج روحية للأشياء ، بحيث نستطيع أن نميز من بينها (علاقات مقدار وعلاقات كمال) تتعلق الأولى بالعالم النظري والثانية تتمثل في النظام الدائم الذي ترجع إليه الهوية في جميع أفعالها وينسحب هذا النظام أيضاً على العقول بل يعد قانوناً أولياً لها في تقديرها وفي محبتها للأشياء ، فالعقل هو نداء الاله في النفوس ومن لا يستجيب لأوامره ونواهيه يصبح عرضة للخطأ ، فيحكم على الأشياء بعقله الجزئي وليس بعقل الاله الكلي الموجود به ،والذي يمثل غطاءً إلهياً شخصياً في النفوس يمكن من خلاله الكشف عن نظام وكمال الوجود (رواية عبد المنعم، صفحة ١٨١).

وبهذا كان هدف (مالبرانش) من فلسفته العقلية هو أن يصل العقل الإنساني الى تلك القدرة الفائقة والتي تشبه الى حد بعيد (التفكيرالإلهي) من حيث أن العقل هو الذي يرى الحقيقة ويريد الوصول إليها (المصدر نفسه، صفحة ١٦٠).

وبهذا يمكننا القول إن (مالبرانش) من خلال سياسته الفكرية أستطاع أن يصوغ مذهبه ومساره الفكري من خلال الربط بين الفيزيقا الديكارتية (Deiascarte sphysiss) التي ترى الأشياء كما تمثلها وتظهر ما عندنا من أفكار واضحة و (ميتافيزيقا أوغسطين) (Au-gustine metaphysics) التي ترى الأفكار بشكل واضح ،وكان لهذا الربط أثر روحي على مساره الفكري والعقلي (مالبرانش والفلسفة الالوهية، صفحة ٢١٠).

المحور الثاني:فلسفة العقل.

تعد فلسفة العقل فرع من فروع الفلسفة ،فالفلسفة هي العلم بحقائق الاشياء والعمل بما هو أصلح، وفي الفلسفة الحديثة أصبحت الفلسفة هي دراسة المبادئ الاولى التي تفسر المعرفة تفسيرا (عقليا) مثل الاخلاق والتاريخ وفلسفة العلوم وغيرها (صليبا، ج٢، ١٩٨٢، صفحة ١٦٠).

والفلسفة تدل أيضا على دراسة العقل البشري من جهة ماهو متميز عن موضوعاته حيث أنقسمت الى قسمين:الاول يشمل البحث عن أصل المعرفة وقيمتها، وفي مبادئ اليقين وأسباب حدوث الاشياء. والثاني يشمل البحث في قيمة العمل(المصدر نفسه، صفحة ١٦١).

أما العقل فهو وسيلتنا الاساسية لفهم الحقائق حول حالاتنا العقلية وهي الاستبطان والطبيعة الدقيقة للتأمل الذاتي(Timothy oconnor& David robb, 2002, p. 4).

نستنتج من كل ما سبق ان العقل مرتبط بالفلسفة أرتباطاً وثيقاً بل هو منبع للفلسفة فعنه نتجت كل المعارف والعلوم.

فلسفة العقل اذن هي عملية التفكير وفلسفة العقل هي فرع من فروع الفلسفة تهتم بطبيعة الظواهر العقلية بشكل عام ودور الوعي والإحساس والإدراك والمفاهيم والعقل والمنطق والنية والاعتقاد والذاكرة وغيرها بشكل خاص، وتشمل أيضاً المسائل القياسية تلك المتعلقة بحرية الإرادة والهوية الشخصية ومشكلة العقل والجسم والعقول الأخرى(Inidgo Copmanions of philosophy , 2002, p. 332).

المحور الثالث: العقل والدين

طرح (مالبرانش) فكرة الله وجعلها منبع لكلالأفكار،فنحن نحيا ونتحرك بقدرته، فهو يحدث الأفكار في النفس،والعالم الخارجي موجود لأن الله خلق السماء والأرض،وأن الله وحده هو الفعال، ومخلوقاته ليست علاً، وإنما فيضاً منه(عبد المنعم الحنفي، صفحة ٤١٥).

ولو تفحصنا جيداً الولادة الحقيقية لفكرة (مالبرانش) في الدين لوجدنا أنه قد تأثر بفكر (ديكارت)، حيث ألتزم بثبات علم الموجود الديكارتي في جميع أعماله العلمية وفي نظرياته حول العالم المادي بشكل عام. فعندما ألتفت ديكارت الى العقل وعلاقته بالله، وجد (مالبرانش) أن النقد المركزي الذي وجهه له يتعلق بطبيعة الأفكار، إذ كان الهدف المباشر للإدراك البشري -بحسب رأيه- هو فكرة في عقل الرب، فمثلاً عندما افتح عيني أنظر الى شجرة على جانب الطريق ، فما أراه في الواقع هو شيء في عقل الله الفكرة في عقل الله هي النموذج الذي تم إنشاء الشجرة بعده مع النتيجة الضرورية هو أن الشجرة تشبه هذه الفكرة ومن خلال معرفة الفكرة يمكننا معرفة الشيء المادي، ومن خلال نظرة (مالبرانش) هذه توصل الى حقيقة الأفكار الموجودة في عقولنا بواسطة رؤية كل شيء في الله ،وفي هذا نجد الأثر الاوغسطيني في اعتماد الإنسان على الله في كل شيء بما في ذلك حتى الإدراك(Malebranche, 1997, p. Xi).

إذن كان اعتقاده ينصب في أن عقلنا لديه في كثير من الأحيان أفكار حقيقية من الأشياء التي لم تكن موجودة أمامنا، فعلى سبيل المثال عندما نتخيل جبلاً ذهبياً، فمن الضروري أن تكون هذه الفكرة عن الجبل حاضرة حقاً في أذهاننا (Ibid, p. 217) عن طريق الحقيقة المطلقة.

والحقيقة المطلقة عند (مالبرانش) هو أن الله موجود قبل خلق العالم وأن لم يكن ليخلقه بدون معرفة أو أفكار وبالتالي فإن الأفكار التي كانت لديه عن العالم لا تختلف عن نفسه، بحيث أن جميع المخلوقات حتى الأكثر مادية، هي في الله وإن كان بطريقة روحية تماماً غير مفهومه لنا، لذا يرى الله في نفسه كما انه يعرف وجودهما تمام المعرفة ، لأنهما يعتمدان على وجودهما بمشيئته،ولأنه لا يمكنأن يجهل إرادته ، فإن ذلك يستتبع أنه لا

يمكنـأن يجهـل وجودهـما ،وبالتـالي فـإن اللـه لا يـرى في نفسـه جوهـر الأشـياء فحسـب ، بـل وجودهاأيضـا(Ipid, p. 229).

وبهـذا نجـد الأثـر الديـكارتي واضحـاً عـلى فكـر (مالبرانـش) ولاسـيما في مسـألة (الأفـكار الواضحـة المتميـزة)، فقـد أكـد عـلى اسـتحالة قيـام المخلوقـات بـأي فعـل بـدون مسـاعدة إلهيـة مبـاشرة، وبذلـك أسـتبعد أي قـوة عليّـة مـن النفـوس أو الأجسـام عندمـا أرجـع كل عليّـة حقيقيـة إلى اللـه واسـتند في هـذه المحاولـة الى ثنائيـة (ديـكارت) عـن الفكـر والامتـداد التـي يتصـور معهـا اسـتحالة أي تأثـير مـن الناحيـة المنطقيـة للنفـس عـلى الجسـد أو العكـس (روايـة عبـد المنعـم، صفحـة ١٤١). لـذا كان وجـود اللـه عنـد (مالبرانش)وجـوداً لامتناهـي لايقتـصر عـلى مـكان معـين بـل هـو يشـمل العـالم كلـه ويكـون وجـوده روحـاني يتحـد بالأجسـاد بصـورة روحيـة (Spiritually) فهـو ليـس جسـداً إذ لـو كان كذلـك لمـا أتحـد بالأجسـاد بمثـل هـذه الكيفيـة ، فالإلـه ليـس جسـماً ممتـداً ، محـدوداً في إطـار المـكان. فالامتـداد الإلهـي متسـاوٍ لامتنـاه (Infinite) كامـل (Full)[٥]* في سـعته وعظمتـه، كامـل أيضـاً في جميـع الأجسـام الممتـدة وهنالـك يمكننـا القـول إن « اللـه موجـود في العـالم بقـدر وجـود العـالم فيـه « (المصـدر نفسـه ، الصفحـات ٩٠-٩١).

فنحـن إذن نـدرك وجـود اللـه بوصفـه كائنـاً لامتناهيـاً وافـتراض وجـوده الفعـلي ،واشـتماله عـلى جميـع الكـمالات الحقيقيـة ، وبهـذه الكيفيـة يجعـل (مالبرانـش) فكـرة اللامتناهـي مـن موضـوع برهـان الى حـدس أو رؤيـة لوجـود اللـه ،ويسـتحيل فهـم أي معنـى عـن اللـه عـن طريـق أي مضمـون متنـاهٍ معقـول (الحيـدري، ٢٠١٣، صفحـة ١٧٨) فهـو يؤثـر في عقولنـا كل الآثـار نفسـها التـي أثـر فيهـا ، أو بالأحـرى كان سـيعرض عـلى عقولنـا التـي أثـر فيهـا ، أي أنـه سـيعرض عـلى عقولنـا الأفـكار نفسـها التـي لدينـا في الواقـع في عقولنـا اليـوم (Nicolas malebranche, 1997, p. 5) .

وهـو يقـول في ذلـك: « إن السـيد الداخـلي الـذي ينـير العقـل لايفعـل شيء آخـر، لقـد علمنـي دقائـق قليلـة مـن الانتبـاه للأفـكار الواضحـة والمثـيرة التـي قدمهـا معلمـي الداخـلي للعقـل حقائـق أكـثر وحـررني مـن أفـكار خاطئـة أكـثر مـن كل مـا قرأتـه في كتـب الفلاسـفة أو تعلمتـه مـن قبـل أسـاتذتي»(Ibid, p. 34).

وهـذا يعنـي أننـا نـرى أفكارنـا في اللـه سـواء كانـت أفـكار الماديـات أو أفـكار الحقائـق الكليـة الضروريـة فـإن اللـه محـل الأفـكار جميعـاً وهـو وحـده معلـوم بذاتـه ومـا مـن شيء نـراه رؤيـة

٥ *وهنا يتبين لنا الأثر الكبير الذي تركه (ديكارت) على فكر (مالبرانش) أذ وجد ديكارت أن فكرة الكائن الكامل من الأفكار الفطرية الموجودة في العقل، أي فكرة اللامتناهي المتضمنة من فكرة المتناهي، وفكرة الكائن اللامتناهي إطلاقا من تراكم الأشياء المتناهية الموجودة في الكون. رينه ديكارت: التأملات في الفلسفة الأولى، ص١١٩-١٢١.

مباشرة إلا هو ذلك بأن الله ليس مرئياً بفكرة تمثله كما ذهب إليه (ديكارت) لأن هذا هو منشأن سائر الأشياء ، أما الله فهو الموجود اللامتناهي فليس يرى في شيء متناه بل في ذاته واسطه لأنه حاضر لجميع المخلوقات وحاضر لفكرنا، ونحن حاصلون دائماً على فكرة اللامتناهي ومتى نفكر في الله وجب أن يكون الله موجوداً (كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، صفحة ٩٩).

فالله وحدههو العلة الحقة التي تعلم ماذا تفعل وكيف تفعل والتي أثبت النظام في الكون، وربط بين المخلوقات وأخضعتها بفعل قوانينها الكلية الثابتة، بعد أن سلبتها فاعليتها الذاتية وأسبغت عليها الفضل والنعمة والرحمة والعناية، فدبرت أمورها ووظفت مواقفها وكيفت حوادثها بما يناسب قانون العلة الأولى ومعلولها (الحيدري، صفحة ١٨٢). ولقد توصل (مالبرانش) الى هذا التحليل العميق في أن الله هو مركز الكون من خلال قوله : إننا أذا تأملنا بواطن أنفسنا وجدناها تؤكد لنا أننا كائنات مفكرة وأن عقولنا مليئة بالأفكار، ومن بين تلك الأفكار (فكرة الله) (God›s idea) وهو الكائن الأكمل (Perfect being) كاملاً مطلقاً وأيضا فكرة الامتداد بكل ما يتفرع عنها من الحقائق الرياضية والفيزيقية نحن لم نخلق هاتين الفكرتين بل وجدناها في عقولنا من الله ، ومعنى هذا أنهما كانتا في عقل الله قبل أن تحل في عقولنا وكل ما لدينا من أفكار محدودة واضحة منبعها من أصل إلهي (زكي نجيب وأحمد أمين، صفحة ٦٨) ،وهذا ما وجدناه في كتابه (البحث عن الحقيقة) (The Search Truth) حيث أكد على «أن الله هو الذي يمنحنا الشعور بالفرج عندما نعرف أننا في حالة يجب أن نكون فيها ، لكي نبقى فيها كي يتوقف قلقنا ،ولكي نتمتع بسعادتنا بالكامل من دون ترك أي شيء آخر ليحمل قدرة عقلنا ، لكنه يشعرنا بالحزن عندما ندرك أننا لسنا في الحالة التي يجب أن نكون فيها لكي لانبقى في تلك الحالة ،ولكي نبحث عن الكمال الذي ينقصنا ، لأن الله يحثنا باستمرار على الخير عندما نعرف أننا لا نمتلكه، ويوقفنا هناك عندما نرى أننا نمتلكها بالكامل، وبالتالي يبدو من الواضح بالنسبة لي أنه لا المشاعر الفكرية للفرح والحزن ولا المشاعر المنطقية للفرح والحزن هي نتاج طوعي للعقل . لذلك يجب أن يتعرف عقلنا وباستمرار على هذه القوة الخفية التي تملؤها بالخير»(The Search of truth, p. 311).

إذن المسألة الجوهرية التي طرحها (مالبرانش) في موضوع العقل والدين تُدرج تحت الإجابة على السؤال التالي: كيف يمكن لجوهر عقلي لا مادي أن يدرك الأجساماالمادية؟ وجاءت الإجابة على هذا السؤال من خلال ما طرحناه سابقاً أن (مالبرانش) أكد على أن الله هو الذي غرس في عقولنا فكرة العالم المتجسد. وهذا العالم يوجد في الواقع ويتجاوب مع فكرتنا عنه، لأن أفكار الله التي هي مصدر إدراكاتنا الحسية هي أيضاً نماذج لعالم

الأشـياء الماديـة (كامـل، صفحـة ٤٥٠).

وبهـذا تصـور (مالبرانـش) أن اللـه هـو المحـط أو المـدى الـذي تشـغله النفـوس أنـه متحـد بنفوسـنا بطريقـة يمكـن القـول بأنـه (مـكان الأرواح كما يكـون الفضاء هو مـكان الأجسـاممالمادية، وبالتالييسـتطيع الذهـن رؤيـة الموجـودات التـي يمثلهـا اللـه (روايـة عبـد المنعـم، صفحـة ٩٩).

ولكـن هـذه العنايـة الإلهيـة للمخلوقـات التـي هـي مشـتقة وجودهـا مـن النـور الإلهيوهـي تعنـي الرؤيـة المبـاشرة لماهيةاللـه المطلقـة لأنـه يسـتحيل عـلى النفـوس الجزئيـة رؤيتهـا بطريقـة مبـاشرة ، كـما أنـه يمتنـع وجـود معنـى مثـل أو نمـوذج للـه، لـذا مـن غـير الممكـن الإحاطـة بالـذات الإلهيـة لكنـه يمكـن معاينتهـا في حالـة صلتهـا بالمخلوقـات ، أو في اشـتراكها معهـا ، لأنـه لايمكـن معرفـة الأشـياء الحسـية في اللـه إلا بواسـطة معاينتهـا ، وهنـا يعـبر (مالبرانـش) عـن وجـود المخلوقـات الماديـة والأرضيـة المتمثلـة في اللـه بصـورة روحيـة أي عـن طريـق معانيهـا (روايـة عبـد المنعـم ، صفحـة ٩٥) .

أي أن الاتحاديـن (الإنسـان والـذات الإلهيـة) لايحـدث مـع الأجسـام بالطريقـة الحسـية المتعـارف عليهـا، وإنمـا بصـورة مبـاشرة مـع اللـه التـي تتحـد بـه العقـول ويشـترك جسـدها في نـوره الإلهـي (divine light)، حيـث يمنحهـا النـور والمعرفـة (المصـدر نفسـه ، صفحـة ٩٢) .

فكـرة اللـه إذن لاتخـرج عـن مجـرد رؤيـة أو تصـوراً أو حـدس الواقـع اللامتناهـي في ذاتـه وكـما يتجـلى للعقـل الإنسـاني إذ أن مجـرد التفكـير فيـه يسـتلزم وجـود ذاتـه وهـي قضيـة لا تقـل يقينـاً عـن حـدس الكوجيتـو الديـكارتي « أنـا أفكـر إذن أنـا موجـود إن ذلـك يعنـي أن معرفـة اللـه ، طبقـاً لمذهـب (مالبرانـش) – تقتـضي اسـتناداً روحيـاً الى حقائـق الديـن والتسـليم الإيمـاني ، فـلا يمكـن تصـور وجـوده إلا عـن طريـق (الرؤيـة في الـذات) (Avision in one self) أو بمعنـى (مالبرانـش)(رؤيـة اللـه) (Vision in God) (المصـدر نفسـه، صفحـة ٨٩).

وهنـا نجـد شـبه كبـير بـين (مالبرانـش) و (ديـكارت) حيـث أكـد (ديـكارت) عـلى « أن العقـل أعـدل الأشـياء قسـمة بـين النـاس» وهـو يقصـد بذلـك أن العقـول جميعـاً تسـاوي في حصولهـا عـلى النـور الفطـري الـذي منحـه اللـه لهـا تسـاوى أنصبتهـا في الحصـول عليـه في حال استرشـادها بقواعـد سـليمة تعصـم الذهـن مـن الوقـوع في الخطـأ فيصبـح الالـه عنـد (ديـكارت) وهـو الضامـن ليقـين المعرفـة العقليـة وصدقهـا ، هـو نفسـه الـذي يمنـح النـور والموهبـة والـذكاء عنـد (مالبرانـش) ، فالإلـه هـو المصـدر الأسـاسي والمنبـع الأول الـذي تتحـد فيـه العقـول وتسـتمد مـن نـوره الأزلي الـذكاء والقـوة والمعرفـة (روايـة عبـد المنعـم، صفحـة ٩٣).

ونجـد أن (سـبينوزا) قـد جعـل مـن اللـه والموجـودات شـيئاً واحـداً لكنـه رأى أيضـا أنالإنسـان هو تحـول مـن تحـولات الفكـر الـذي هـو صفـه مـن صفـات اللـه اللامتناهيـة حيـث يفقـد الإنسـان تعاليـه الـذي اكتسـبه مـن الكوجيتـو الديـكارتي ويصبـح تحـولاً كباقـي التحـولات اللامتناهيـة

التي تترتب على صفات الله. وعندما أصبح الفكر صفة لا جوهرية لم يعد الإنسان هو نفسه ذاتاً متميزاً ومتعالياً عن باقي الذوات وأصبح ذاتاً مساوياً لباقي الوجود (العلمي، ٢٠١٥، صفحة ١١٧)

المحور الرابع:(العقل والمعرفة)

لازال طريق (مالبرانش) مستمراً في البحث عنه الحقيقة في ظل الرعاية الإلهية، فلم يغفل عن بيان أهمية العلاقة التي تربط بين العقل والمعرفة من خلال التعرف على العالم الذي يحيط بنا، فماهي الطريقة التي من خلالها نصل الى التفكير بشكل منظم ومنسق؟ والطريقة التي من خلالها نتوصل الى إدراك العالم الخارجي بصورة صحيحة.

نحن نكون الأفكار عن عالمنا الخارجي اذا ما تعرفنا على وجود الأشياء المماثلة لأفكارنا التي نستخدمها في التفكير فيها وهذه الأفكار مفيدة للغاية ، لكن محاطة بالغموض، لأنها تضعافتراضات واقعية يصعب التحقق منها بدقة،واذا افترضنا أننا وجدنا طريقة للتأكد من صحة الافتراضات يمكننا الحصول على افضل ما في كلا العالمين (العالم الداخلي- عالم الذات والعالم الخارجي – عالم الموضوع) ، أي يمكننا تجنب الخطأ وفي الوقت نفسه نكتشف الحقائق التي تهمنا فنحن نهتم بالأفكار التي ترتبط ببعضها البعض عندما تمثل علاقات بين أشياء ترتبط بنا بطريقة أو بأخرى ، ويعتقد (مالبرانش) أن هذه أفضل طريقة يستخدمها (العقل) وهنا تتجلى أهميته في الوصول الى الحقيقة(Malbebranche, 2017, p. 56). وهذا يعني أن وسيلتنا الأساسية لفهم الحقائق حول حالتنا العقلية هي الاستبطان والطبيعة للتأمل الذاتي، حيث يبدو أنها تعطينا معرفة أكثر صلة بالعقل من الإدراك الخارجي الذي يعطينا المادة، فتصبح معرفتنا بعقولنا أكثر أمناً من معرفتنا بالعالم الخارجي المادي، فالعقل « يضيء نفسه بنفسه» بطريقة لاتوجد بها في الحالات المادية (Timothy, 2003, p. 4)

وبهذايكون هناك نوعان من العلوم الأول: يتناول الأفكار في علاقتها بعضها ببعض، الثاني يتناول علاقة الأشياء في ما بينها من خلال صورها الذهنية الأولى واضحة من كل وجه أما الثانية فلا يمكن أن تكون كذلك، إلا شريطة أن تتطابق الأشياء التي تملأنا زهواً وغروراً بما تملك من وسائل الإيضاحوالبرهنة،إذن هناك علوم طبيعية تمارس دورها من خلال التجارب والحوادث التي لاتخلو من مواقع الشك (الارتياب) (جان فال، صفحة ٣٩). لذا نحن بحاجة الى عقل أكثر دقة لاستنارةواختراق وأكثر ملاءمة لاكتشاف جميع الحقائق التي ترغب في معرفتها (Malebranche, 1997, p. 529) .

وهنا وصل (مالبرانش) الى حقيقة معرفية مفادها : « أن العقل يعرف الأشياء بطريقتين

فقـط : مـن خـلال الإضـاءة[٦]* ومـن خـلال الإحساسـالذي يـرى الأشـياء مـن خـلال الإضـاءة عندمـا يكـون لديهـا فكـرة واضحـة عنهـا ، وعندمـا تسـتطيع هـذه الفكـرة يمكنهـا اكتشـاف كل الخصائـص التـي تسـتطيع هـذه الأشـياء أن تمتلكهـا ، وهـي تـرى الأشـياء مـن خـلال الإحسـاس عندمـا لاتجـد فكـرة واضحـة عـن هـذه الأشـياء في حـد ذاتهـا لـكي يتـم استشـارتها عندمـا تكـون غـير قـادرة عـلى اكتشـاف خصائصهـا بوضـوح وعندمـا تعـرف فقـط مـن خـلال الإحساسالمشـوش دون إضـاءة أو دليـلا» (Ibid, p. 621).

أي أننـا نـدرك الأشـياء بواسـطة العقـل مـن خـلال مـا ينبثـق مـن نـور اللـه في العقـل ومـن خـلال الإحسـاس كلـما ارتفعنـا عـن ملذاتنـا ورغباتنـا كلـما ارتقينابعقولنا.

ونحـن لانـدرك الأشـياء الخارجيـة في ذاتهـا كالشـمس مثـلاً لأن النفـس لا تـترك الجسـم لتتجـول في النقـاء، وتتأمـل الشـمس والنجـوم، ولا هـي تتحـد بالنفـس هـو فكـرة الشـمس، ومـن ثـم نحـس الشـمس سـواء كانـت موجـودة فعـلاً أو غـير موجـودة، فهـي آتيـة مـن قبـل النفـس، وتمثـل في الذهـن، فاللـه هـو الـذي يحدثهـا في النفـس مـن بـاب أن الأعـلى هـو الـذي يؤثـر في الأدنى،وأن ماندركـه بحواسـنا مبـاشرة مـن أفـكار، هـي أفـكار الأشـياء أو صورهـا في عقـل اللـه (الحنفـي، صفحـة ٤١٥).

إذن معرفـة العقـل للـه والاهتـمام بهـذه المعرفـة تمثـل أكمـل وأسـمى معرفـة يحصـل عليهـا فاللـه لا يـرى الحقيقـة كـما نراهـا نحـن، بـل يراهـا في جوهرهـا، كـما أننـا نكـون في محاولـة مسـتمرة لرؤيتهـا في هـذه الـذات الإلهيـة (روايـة عبـد المنعـم، صفحـة ١٥٩).

وبالرغـم مـن أن اللـه يهـب مخلوقاتـه المعرفـة بنظـام الطبيعـة لكنـه لا يكشـف لهـم جميـع أسرارهـا حتـى تصبـح عقولهـم عـلى اسـتعداد دائم للخضـوع للإيمان وهـذا هو هـدف (مالبرانش) الدينـي مـن فلسـفته الـذي يجعلـه يذهـب الى الاعتقـاد بـأن حالـة تفكـير الإنسـان ومـا يحتويـه عقلـه مـن ذكاء إنمـا تشـبه الى حـد بعيـد (التفكـير الإلهـي) مـن حيـث أن العقـل يـرى الحقيقـة كـما يراهـا اللـه تمامـاً (المصـدر نفسـه، الصفحـات ١٥٩-١٦٠) . لكـن كيـف يسـتطيع العقـل الوصـول الى الحقيقـة التـي يحتويهـا ١٠التفكـير الإلهـي)؟ كيـف يمكنللعقـل الوصـول الى ذلـك النـور الصـادر مـن اللـه.

يعتقـد (مالبرانـش) أن عقـل الإنسـان محـدود لا يسـتطيع فهـم مـا يتضمـن في اللانهـائي (Mal-ebranche, p. 99)

وبهـذا ذهـب الى إنـكار قيمـة الحـواس في تعرفنـا عـلى الأجسـام[٧]* التينعرفهاعـن طريـق مـا

---

٦ * يقصد بها مالبرانش بالإضاءة أي النور الذي يقذفه الله في عقل الإنسان، فنحن خلقنا من أجل الله، فأصبح الواقع الطبيعي لقلبنا يتوقف فقط على امتلاكنا للخير . Mmalebranhe: the searce fter truth, p.212 ويقارن : رواية عبد المنعم ، مالبرانش والفلسفة الحديثة الإلهية، ص١٥٩.

٧ *وهذا ما ذهب إليه أصحاب المذهب العقلي ومنهم (ديكارت) حيث ذكر في كتابه (مبادئ

يخلقه الله فينا من معاني، فنفوسنا قاصرة عن خلق أي معنى منها مهما بلغت من قوة، لأن الله وحده هو القادر على خلقها، وعلى إيجادها فينا في كل لحظة فالله أذن هو خالق المعرفة ومؤسسها (رواية عبد المنعم، صفحة ١٦١). وفعل المعرفة بالنسبة للنفس يتطلب تطهيراً وتنقية من شوائب الأهواء والشهوات وذلك بتخليها من قيود البدن، ولا يحدث هذا التطهير إلابالانتباه فهو سبيل النفس في الحصول على المعرفة، فهي ترى من خلاله المعاني التي تعد نماذج أزلية وهو ذات طبيعة إلهية (المصدر نفسه، صفحة ١٥٨). فالنفس هي الجوهر الروحي الذي يمدنا بالأحاسيس النورانية من هنا تنبثق لدينا أفكار واضحة ومتميزة، لكن نفسنا التي تنطوي على هذه الأفكار الواضحة والمتميزة والتي تبصرها، هي ليست في حقيقتها سوى ظلمات، وهنا يقول (مالبرانش):» لست، أنا نفسي ، سوى ظلام في ظلام وعندما أنطوي على نفسي فلا يخالجني سوى شعور أعمى، ليس فيه شعاع من «ضياء»،ويستطرد (مالبرانش) فيقول:» أعرف الله بفكري معرفة واضحة جلية، أما نفسي فلا أعرفها بسوى أحساس غامض، مظلم» ، أي أننا نعرف الله حق المعرفة لفكرنا ، أما عن نفسنا فمعرفتنا بها تكون غامضة الا من خلال معرفتي بالله (جان فال، صفحة ٣٧).

ويؤكد على أن (الله والنفس) هما أفكار لا وجود لها على صعيد الواقع لأنهلاتوجد فكرة مماثلة لها، فما موجود سوى فكرة الامتداد المعقول، وهنا يتبين لنا عمق الفكرة وهو يرتقي متدرجاً وبطريقة لا تختلف كثيراً عما تبناه (أفلاطون)[٨]* من اللافكرة الى الفكرة،فإلىما هو فوق الفكرة (المصدر نفسه، صفحة ٣٨)

وهذا يعني أن الوسائل المعرفية لمعرفة كل ما هو قادر على معرفته موجوداً دائماً في العقل،وإذا فشل في إدراك هذه القدرة، فإن الخطأ يكمن في عدم الاهتمام المتعد بالوسائل المعرفية. أن بحثنا عن الحقيقة -على حد قول (مالبرانش) – لا يتعلق بالبحث عن شيء غائب عن الأنظار، ولابنائه، بقدر مايتعلق بتحقيق ما هو موجود لدينا بالفعل.(Male-branche, p. XIII).

الفلسفة) أن التجربة تدلنا على أن الحواس خادعة وثقتنا تكمن في العقل، وهذا ما يدعوا الى الشك فيها. أنظر: رينه ديكارت: مبادئ الفلسفة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٠، ص٨٩.

٨ * وفي ذلك يقول أفلاطون في جمهوريته: « وإذا قابلت الصعود الى سطح الأرض ورؤية ما عليها من الأشياء بارتقاء النفس من سجن جهلها الى العالم العقلي الأعلى فأنك حينذاك تلمس ظنوني ما دمت ترغب في معرفتها والله وحده يعلم اصحيحة هي أم لا. وعلى كل فأن الرأي الذي اخرته بهذا الشأن يتمشى على ما يأتي: أن « صورة الخير» الجوهرية في عالم المعرفة هي حد أبحاثنا وأخر ما يمكن فهمه ولكن متى ما أدركناها لا يمكنناإلا أن نستنتج أنها في كل حالة أل كل ما هو جميل وباه. ففي العالم المنظور تلد النور وربه، وفي العالم العقلي تمنح بمطلق سلطانها، الحق والعقل:أفلاطون: جمهورية أفلاطون، ت: حنا خباز، مكتبة النهضة، بغداد، ط٢، ١٩٨٦، ص٢٠٥.

والبحث عن الحقيقة يتطلب الكثير من التحمل وكل ما يلزم هو أن ننتبه الى الأفكار الواضحة التي يجدها كل واحد منا في نفسه وأن نتبع بدقة القواعد العديدة التي سنقدمها فيما بعد. وبالتالي ينتج النور وتكشف لنا الحقيقة (Ibid, p. 1)

والخيال الذي يمتلكه العقل لايعتمد على أي أجزاءمادية، أي الغرائز الحيوانية ، وأنما يتمسك بها فهو بحاجة الى كشف التغيرات المختلفة التي تطرأ على عملية المعرفة(Malberanche, 2017, p. 20).

أي أن (مالبرانش) أكد على ضرورة الخوضفي العقل لكي نصل الى بواطن المعرفة المكنونة فيهاوهنا تكمن أهمية تلك الفلسفة العقلية في الجانب المعرفي.

وهنا نجد الأثر الاوغسطيني الذي تركه القديس أوغسطين على فكرة مالبرانش حيث جعل أوغسطين المعرفة الباطنية أساسا للمعرفة الى جانب المعارف الأخرى التي تقوم على الحواس وشهادة الأعيان، إذ أنه قال « نعرف أننا نحيا « وأعرف « أني أريد أن أكون سعيداً» ومكرراتها التي لا تحصى مقارنة بين ادعاءات المعرفة المكررة التي تتعلق بعالم الباطن (ماثيوز، ٢٠١٣، الصفحات ٧٢-٧٣)

المحور الخامس: العقل والأخلاق

لما كان الله هو الذي يحدث الأفكار، وهو يقابل أفكار النفس بعضها البعض وأفكار النفس تُفعل حركات الجسم، وهذه الحركات لا تتم إلا من خلال (الإرادة).

فإن الإرادة عند (مالبرانش) قائمة على (العقل) (Mind) ومذهبه الأخلاقي أساسه (العقل) وأساس (العقل) هو قانون الإرادة الذي نتصل به عن طريق الله ، وهذا القانون يوجد فيه نوعان من النسب بين الأشياء نسب مقدار (Amonunt ration) ونسب كمال (Per-fect Proportions) الأولى تتعلق بالعلم ،والثانية تتعلق بالنظام الذي يمثل قانون العقول في تقديرها للأشياء ومحبتها لها ، ومن ثمة يصبح قانون الإرادات ومنبع الأخلاق ، فتتجه محبة المخلوقات الى الله أولاً وفوق كل شيء لأنه الكمال المطلق ثم الى المخلوقات كل حسب نسبته ، أي درجته من الكمال (رواية عبد المنعم، صفحة ١٨٢)ويقارن (كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، صفحة ١٠٤).

ومايحصل عليه ذهن الإنسان من الكمال والخير في اتحاده بنور الخالق، ومن ثم يصبح حصول المخلوقات على الخير، واتجاهها نحوه يقترن باتحادها بالذات الإلهية التي يستحيل على النفوس الإنسانية ونماذجها أن نتمثلها، لأنها هي التي خلقتها بإرادتها الحرة وبقدرتها اللامتناهية على خلق وحفظ الوجود، ومنهجه القدرة على الحركة (المصدر نفسه، صفحة ٩٣).

فالذات الإلهية تمتلك الإرادة الحرة والقدرة الخارقة في الخلق وفي منح الهبات للإنسان،

لكـن هـل الإرادة التـي يمتلكهـا الإنسـان هـي إرادة حـرة.

في حقيقـة الأمرأنالإنسـان بطبعـه يميـل الى الخـير، وحـب الخـير (The good) مطبوعفيـه، قـد يواجـه الإنسـان، في حياتـه ظـروف صعبـة، أو يمكـن أن يكـون مقيـداً بإحساسـه أو محـركاً لأفـكاره، فكيـف يتـصرف إزاءهـا.

يعتقـد (مالبرانـش) أن الإنسـان يمتلـك القـوة عـلى الرفـض ، وأن لديـة الإحسـاس الداخـلي (inner feeling) بأنـه يسـتطيع أن يرفـض كل مـا يقيـد أو يوجـه إرادتـه الى مـا ليـس خـيراً ، فـاذا كان اللـه هـو الفاعـل الوحيـد ، فـإن الخـير وكل الكائنـات تنسـب الى اللـه ، وتتفـاوت الموجـودات بنسـب التفاضـل بمـا فيهـا مـن نسـب الكـمال الإلهـي، وتتوجـه إرادة الخـير الى الموجـودات كلاً بحسـب نسـبته مـن اللـه ودرجتـه مـن الكمال،ولعـل هـذا الاختـلاف هو السـبب في اختلافالأخلاق(الحنفـي، الموسـوعة الفلسـفية ، صفحـة ٢١٥) وذلـك لان إرادة اللـه تصـف المخلوقـات بالخـير والمحبـة، لأن هاتـين الصفتـين تحفظهـم وترعاهـم لمجـده الأعـلى، الـذي هـو الغايـة الأسـاس لذاتـه والتـي لا دخـل لحريـة الإنسـان ولا لإرادتـه فيـه (المصـدر نفسـه، صفحـة ١٩٨) .

ولذلـك طـرح (مالبرانـش) عـلى أن « الآثـار التـي تثيرهـا في الدمـاغ تثـير الأفـكار في العقـل، وان الحـركات التـي تثيرهـا الأرواح الحيوانيـة تثـير العواطـف في الإرادة، فمـن الـضروري أن نفهـم أن سـبب كل هـذه الروابـط المختلفـة منبعثـة مـن (اللـه) ، فهنـاك أشـياء لا نسـتطيع تفسـيرها حتـى وأن كان هنـاك (عقـل) مهـما كانـت قدرتـه لا يسـتطيع أن يكتشـف مـن خـلال التأمـل فيهـا المزيـد مـن الحقيقـة التـي قـد يسـتنتجها أكـثر البـشر بلاغـة في العـالم (Malebranchne, p. 101).

وكان نتيجـة لذلـك هـو أن الإنسـان أفسـد عقلـه وقلبـه بالأشـياء الماديـة التـي أصبـح متعلقابهـا، وبفسـاد قلبـه جعـل عقلـه مظلـماً بإبعـاده عـن النـور الـذي هـو (النـور الإلهـي) (Male-branche, p. 20).

مـن هنـا ربـط (مالبرانـش) العقـل بالأخـلاق، مـن خـلال القـوة المغروسـة في داخـل الإنسـان والتـي زرعهـا اللـه فيـه، وهـذه القـوة تتمثـل بـالإرادة التـي لهـا حريـة الاختيـار في الإقـدام عـلى الخـير واجتنـاب الـشر.

لكننـا نتسـاءل هـل غايـة (مالبرانـش) مـن الأخـلاق هـو نـشر الخـير والفضيلـة والسـلام أم الوصـول الى الحقيقـة.

يجيـب (مالبرانـش) عـن هـذا السـؤال قائـلاً: «أننـا لا نـرى عـلى نحـو مماثـل في بيـان مـدى أسـتفادتنا مـن حريتنـا في قبـول الحـق، وهـذا يجعلنـا نعتقـد أن الموافقـة عـلى الحقيقـة ليسـت تطوعيـة، ولـكي نميـز بوضـوح رضى الإرادة عـن الحـق ورضاهـا عـن الخـير، لابـد مـن معرفـة

الفـرق بينهـما وهـذا الفـرق يكمـن في أن الخـير يؤثـر فينـا بينـما الحقيقـة لا تؤثـر فينـا. الحقيقـة تكمـن في علاقـة الاتفـاق بـين الأشـياء معنـا ونتيجـة لذلـك لا يوجـد سـوى فعـل واحـد مـن أفعـال الإرادة فيهـا يتعلـق بالحقيقـة (Malberarcho, p. 9) .

إذن كلـما اتجـه الإنسـان الى فعـل الخـير والابتعـاد عـن فعـل الـشر كلـما أقـترب مـن الـذات الإلهية،وتمكـن مـن نـشر المحبـة والفضيلـة وبالتـالي أنغـرس الخـير في ذواتنـا، أمـا الحقيقـة فهـي لا تؤثـر فينـا إلا مـن خـلال تعاملهـا مـع الأشـياء وانسـجامها معنـا.

وهنـا تكمـن قـدرة العقـل عـلى تحقيـق (الخـير والفضيلـة) ورفـض مـا ينجـم عـن الحـس مـن معرفـة وسـلوك يتسـم بالبطـلان والخـداع (روايـة عبدالمنعم ، صفحـة ١٨٧) . لـذا أصر (مالبرانش) عـلى توثيـق العلاقـة بين(النفـس واللـه) واتحادهـما مـع البعـض والتقليـل قـدر المسـتطاع مـن مقـدار خضـوع الـروح للجسـد وهـو اتجـاه يهـدف الى دخـول جميـع المخلوقـات في مجتمـع واحـد مـع اللـه عـن طريـق مـا يخلقـه العقـل الإلهـي (صـوت اللـه فيهـم) مـن أحـكام وعلاقـات كـمال والتمييـز يمكـن الـروح والجسـد يتعلـق بمسـألة (الخطيئـة) التـي أهتـم بهـا (مالبرانـش) اهتمامـا كبـيراً في موضـوع (الأخـلاق) (روايـة عبـد المنعـم، صفحـة ١٩٦) فكانـت الفضيلـة في موضـوع الأخـلاق عنـده لهـا دور مميـز ، فهـي تنتـج في مخيلـة مـن حولنـا أو مـن يعتبرنـا عـلى نحـو اقـرب أنهـا تنـير فينـا كل الدوافـع التـي تميـل الى الحفـاظ عـلى وجودنـا والى زيـادة عظمتنـا ، لذلـك يحافـظ النـاس عـلى سـمعتهم كخليقـة جيـدة يحتاجـون إليهـا ليعيشـوا حيـاة مريحـة في العـالم (Malebranch, 1997, p. 290).

إن التـزام النـاس بالقواعـد الأخلاقيـة وتوجيههـم نحـو تطبيقهـا مـا هـو إلا رجوعـاً الى العقـل الخالـص (Pure reason) ، الـكلي الموجـود فيهـم ، الذيـن يسـعون إليـه متسـاوين في مقـدار حبـه ، عاملـين بهـداه ومقتضيـين بأوامـره (روايـة عبـد المنعـم، صفحـة ١٨٣) .

فالعـدل إذن هـو صـوت اللـه فينـا، مـن لا يخفـي إليـه يقـع في الخطـأ والخطيئـة، ويحكـم عـلى الأشـياء بعقلـه الخـاص لا بالعقـل الـكلي الموجـود فينـا كجـزء إلهـي يسـتطيع استكشـاف النظـام بالرغـم مـن اختـلاف تكويـن العقـول بالتربيـة والعـادة وظـروف المـكان والزمـان وهـذا الاختـلاف هـو السـبب في اختـلاف الأخلاق(كـرم، تاريـخ الفلسـفة الحديثـة، صفحـة ١٠٤).

إذن الإرادة عنـد الإنسـان هـي الأثـر المتصـل الصـادر عـن صانـع الطبيعـة والموجـه للنفـس نحـو الخـير، وإذا مـا نظرنـا في حريـة الإرادة أثبـت الحريـة بشـهادة الوجـدان، وبمـا قـال مـن أن موضـوع الإرادة الخـير، فمتـى مـا كان هـذا الحـال هكـذا كان في اسـتطاعة الإنسـانأن يمتنـع مـن محبـة أي خـير جـزئي لقصـور الخـيرات الجزئيـة عـن اسـتنفاد كفايتـه للمحبـة وإرضـاء إرادتـه كل الرضـا، ثـم يضطـر الى القـول بـأن الاختيـار فعـل صـوري فقـط أو جعـل باطـن عاطـل مـن الفاعليـة (كـرم، تاريـخ الفلسـفة، صفحـة ١٠٣).

إن العقـل عندمـا ينظـر الى نفسـه، يـرى أنـه لا شيء ينقصـه السـعادة والكـمال أو يـرى أنـه لا يملكـما يرغـب فيـه، وعندمـا تـرى سـعادتها تشـعر بالفـرح وعندمـا تـرى تعاسـتها، حزنهـا فهـو يتخيـل عـلى الفـور أن إدراك سـعادته هـو الـذي ينتـج هـذه الفرصـة فيـه لأن هـذا الإحسـاس يرافـق دائمـاً الإدراك(Malobranche, p. 311).

فاللـه خلـق الإنسـان في البدايـة عـادلاً وبـلا عيـب وجعلـه حـراً فذلـك لأنـه أراد مـن دون أن يهمـل مـا يديـن بـه (اللـه) لنفسـه، أن يجعـل الإنسـان سـعيداً، حتـى بعـد أن أخطـأ الإنسـان وأسـتحق غضـب اللـه، فـإن اللـه لايـزال يسـتطيع أن يحبـه بالكثـير مـن الصدقـات والخـير (Malebanche, p. 100) .

ولـكي يتـم تنظـير الأشـياء بشـكل جيـد، يجـب أن تشـعر الـروح بالسـعادة بمـا يتناسـب مـع مقـدار الخـير الـذي تتمتـع بـه، فالسـعادة[٩]* هـي غريـزة طبيعيـة، أو بمعنـى أوضـح هـي انطبـاع مـن اللـه نفسـه يوجهنـا نحـو خـير مـا، (Ibid, p. 19).

فـالإرادة هـي الدافـع الأسـاسي لـكل شـعور بالقلـق والرغبـة في الخـير الـذي يملكـه القـدر، لا يمكنـه أن يسـمح للعقـل بـأن يعيـش لفـترة مـن الوقـت في حقائـق مجـردة لا تؤثـر عليـه ويحكـم بأنـه غـير قـادر عـلى إسـعاده. وبالتـالي فإنـه يحـث العقـل باسـتمرار عـلى التفكـير في أشـياءأخرى،وعندما يواجـه العقـل في سـياق قيادتـه بـالإرادة شـيئاً يحمـل علامـة الخـير أي يجعـل وجـوده النفـس تشـعر بالرضـا الداخـلي ويعتقـد (مالبرانـش) أن فـراغ الأشـياءالمخلوقةلا يمكنـأن يمـلأ القـدرة اللامتناهيـة وذلـك لان هـذه الملـذات التافهـة بـدلاً مـن أن تـروي عطشـهما تزيـد مـن حدسـها وتعطـي الـروح الأمـل العقيـم في أن تشـبع بتعـدد الملـذات الأرضيـة، وهـذا يـؤدي الى المزيـد مـن عـدم الاسـتقرار والضعـف الـذي لا يمكـن تصـوره مـن جانـب العقـل الـذي يتمثـل واجبـه في العثـور عـلى هـذه السـلع للنفـس (Malelbranch, p. 212).

وبهـذا يصبـح الكـمال هـو قانـون الإرادات والأخـلاق وتتجـه هـذه الإرادة الجزئيـة (الفرديـة) التـي تتمثـل في المخلوقـات التـي خلقهـا اللـه، وهـي متجهـة في محبتهـا الى الله،ومـن ثـم تنشـأ الفضيلـة التـي تعنـي محبـة النظـام (روايـة عبـد المنعـم، صفحـة ١٨١).

هكـذا تتـوالى موضوعـات الأخـلاق في فكـر (مالبرانـش) مـن خـلال الـصراع بـين الدنيـا وملذاتهـا والديـن، بـين الخـير الدائـم والـشر العـارض، وسـيادة المحبـة ثـم نـشر (الخـير والحريـة)، وهـذه كلهـا موضوعـات (دينيـة روحيـة) تؤسـس مذهبـاً (أخلاقيـاً دينيـاً ومثاليـاً) (المصـدر نفسـه ،

---

٩ *لقد اهتم أوغسطين بمفهوم السعادة وقد خصص كتابه (مدينة الله) و (الاعترافات) و (رسالة في الثالوث) وكان تصوره عن السعادة تجريبي حيث حث المرء على القيام بكل ما في وسعه لكي يصبح سعيداً، في حين أن امتلاكه للسعادة كان ذات تصور صوري وكذلك تصور صوفي – روحي في حياة الفكر والتأمل الفلسفي المحض . وفي هذا نجد أثر أوغسطين على فكر مالبرانش. جاريث ماثيوز، أوغسطين، ص٢١٢-٢٢٧.

صفحة ١٨٠).

وبهذا شهدنا كيف أستطاع (مالبرانش) أن يضع العقل ضمن قانون الإرادة التي هي الفيصل النهائي لكل أفعالنا الأخلاقية.

الخاتمة

لقد توصلت من خلال بحثي هذا الى النتائج التالية:

بين (مالبرانش) قدرة وقيمة العقل الذي يمتلكه الإنسان في أن للعقل قدرة فائقة لأنه هبة من الله وهبها للبشر وهو به يتميز الإنسان عن سائر المخلوقات إذ ما أستخدمه بالصورة الصحيحة.

العقل يستطيع أن يرتقي ويسمو بمجرد التركيز على محرك الأفكار ومحاولة اختيار ما يناسبه، فما يحتوي عقل الإنسان من ذكاء يشبه الى حد كبير (التفكير الإلهي) لأن العقل يرى الحقيقة كما يراها الله – بحسب اعتقاد مالبرانش- عندما يتعلق بالله.

العقل يدرك كل الأشياء بواسطة (الحضور الباطني) الذي وهبه الله له.

نحن نحتكم من خلال العقل لأنه يدخل في باطن أنفسنا فهو عقل كلي لأنه مستمد من الله فهو من صنعه، فهو النموذج ومن خلال الأفكار التي كونها في العقل والتي أوجد الله فيه القدرة على تكوينها نعرف الأشياء المادية (فكرة العالم المتجسد).

العقل هو الذي يمتلك حرية الإرادة فهو قادر على الاختياروالتمييز بين الحق والباطل أو الخير والشر، فاذا ما اختار الخيركان أكملمن بقية البشر ونشر الحب والفضيلة ونشر السلام في المجتمع، وكم نحن بحاجة الى مثل هكذا، عقل في أيامنا هذه في ظل فقدان الإنسان للمعاني السامية الراقية التي تنبثق من العلةالأولىاللامتناهية.

السعادة الحقيقية التي يصل إليها العقل الإنساني هي أن الله قد جعل الإنسان حراً لأنه أراد له ذلك، حراً في اختيار أفعاله في اختيار احتياجاته وبالتالي تقرير مصيره، ومعنى هذا أنالإنسان هو الذي يصنع لنفسه السعادة، فما عليه إلا أن يختار، وهذا ما أكد عليه علماء النفس والتنمية البشرية.

المصادر والمراجع

١. إحسان علي الحيدري: فلسفة الدين في الفكر الغربي، دار الرافدين للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ٢٠١٣.

٢. أفلاطون: جمهورية أفلاطون، ت: حنا خباز، مكتبة النهضة، بغداد، ط٢، ١٩٨٦.

٣. أوغسطين: مدينة الله، ترجمة: الخور أسقف يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت- لبنان، ٢٠٠٦.

٤. جاريث ماثيوز: أوغسطين،ترجمة: أيمن فؤاد زهري، دار أفاق للنشر والتوزيع، القاهرة،

.٢٠١٣
٥. جـان فـال: الفلسـفة الفرنسـية مـن ديـكارت الى سـارتر، ت: مـارون خـوري، منشـورات عويـدات ، لبنـان -بـيروت ، باريـس ، ط١، ١٩٦٨.
٦. جميل ، صليبا، المعجم الفلسفي ، ج٢، دار الكتاب اللبناني ، بيروت – لبنان،١٩٨٢.
٧. رينيـه ديـكارت: التأمـلات في الفلسـفة الأولى، ترجمـة: عثـمان أمـين، المركـز القومـي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٩.
٨. رينيـه ديـكارت: قواعـد لتوجيـه الفكـر، ترجمـة: سـفيان سـعد اللـه، سراس للنـشر، تونـس، ٢٠٠١.
٩. رينيه ديكارت: مبادئ الفلسفة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٠.
١٠. روايـة عبـد المنعـم: مالبرانـش والفلسـفة الإلهية،تقديـم: محمـد عـلي أبـو ريـان، دار النهضـة العربيـة للطباعـة والنـشر، بـيروت – لبنـان، ١٩٩٦.
١١. زكي مجيـب محمـود وأحمـد أمـين: قصـة الفلسـفة الحديثـة، دار الفضـل للطباعـة والنـشر، لبنـان، ٢٠١٩.
١٢. عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، ج٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ب.ت.
١٣. فرانسـو أديـدال: معجـم الفلسـفة الميـسر، ت: جـورج سـعيد، دار الحداثـة للطباعـة والنـشر والتوزيع،بـيروت، ط١، ١٩٩٢.
١٤. فـؤاد كامـل وآخـرون: الموسـوعة الفلسـفية المختـصرة، منشـورات مكتبـة النهضـة ودار القلم، بـيروت – لبنـان، ١٩٨٣.
١٥. يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٧٧.
16. Inidgo Companions of Philosophy, cosmopubleations, New Delhi,indial,2002.
17. Malebranche, Nicolas : Dialouges on Metaphysics and on Religion, Copyright, Jonathan Bennett,2017.
18. Malebranche: the search after trath, Thomas M.Lemon and Paul J.dseqmp, printed in Great Britin at the university canbrige, 1997.
19. Timothy O›somnor and David Robb Philosophy of mind, Contemporary Rcadongs, London, 2003.